

المنهج العيادي

الدكتورة: نادية شرادي

جامعة سعد دحلب- البليدة

ملخص:

يستخدم المنهج العيادي في إطار المساعدة النفسية، للإحاطة الشاملة بتفاصيل الحالة من منظور دينامي، علائقي وتاريخي. كما يستخدم هذا المنهج في البحث العلمي من أجل دراسة الظاهرة النفسية للوقوف على تفاصيلها بشكل دقيق، بهدف التعرف على القوانين التي تحكمها وتحركها.

نحاول بلورة هذه الأفكار من خلال هذا المقال لإبراز أهمية المنهج العيادي في الدراسات والبحوث النفسية.

الكلمات الأساسية:

المنهج العيادي - دراسة الحالة - المقابلة- الملاحظة - الاختبارات النفسية.

مقدمة:

يعتبر المنهج العيادي منهج بحث، يساهم في توسيع معارفنا بصفة عامة في علم النفس وهو بذلك منهج غير خاص فقط بالممارسين بجوار سرير المريض.

إن الإلتماس العيادي (L'Approche Clinique) هو نوع من السعي للوصول إلى داخلية الفرد، وفهم هذه الداخلية ومن ثم الوصول إلى إعطاء معنى لكل ذلك الفهم.

يعود الفضل لعالم النفس ويتمر (Wetmer)*¹ في كونه أول من استعمل التعبيرين " علم النفس العيادي " و " منهج عيادي في علم النفس "، وكان إنشاء أول عيادة نفسية عام 1896، وكلمة عيادة (Clinique) تدل على " جوار سرير المريض " (في الطب)، ثم امتد استخدامها إلى دراسة الفرد، أي فحص وعلاج المريض كفرد على أساس أعراضه.

لقد عرّف ويتمر (Wetmer) المنهج العيادي بأنه " منهج البحث يقوم على استعمال نتائج فحص مرضى أو فحص لعدد من المرضى ودراساتهم الواحد تلو الآخر، لأجل إستخلاص مبادئ عامة توحى بها ملاحظة كفاءاتهم وقصورهم ".
العيادات النفسية هي المكان الذي يطبق فيه هذا المنهج، وذلك في مجال الصحة والتربية والتوجيه الصناعي والإجتماعي.
يتبع الفاحص أو الباحث في المنهج العيادي خطوات محدّدة ليصل من خلالها إلى فهم شخصية مفحوصه.
فالدراسة العيادية تمتاز بصفة منهجية بكونها تهدف إلى الكشف عن تصرفات ومواقف وأوضاع كائن إنساني معين إتجاه مشكلة، البحث عن معنى لهذا الموقف وأساسه ومنشأه، إظهار الصراع الذي أدى إلى هذا الموقف والإجراءات التي تهدف إلى حل هذا الصراع.
يستخدم الباحث أو الأخصائي النفسي في المنهج العيادي دراسة الحالة، أي حالة فريدة من نوعها، فردية بعينها، دراسة عميقة بقصد فهمها وعلاجها.

إن دراسة العديد من الحالات الفردية ومقارنتها بعد ذلك، يمكن أن تمدنا بمعلومات نظرية ذات قيمة؛ أي من الميدان تصل إلى التنظير ووضع نظرية.

يقوم المنهج العيادي على ملاحظة الفرد أو الأفراد ومعرفة ظروف حياتهم ومعاناتهم، بحيث يتيسر تأويل كل حادث في ضوء الوقائع الأخرى، نظرا كونها تشمل كلا ديناميا.

مسلمات المنهج العيادي :

يستند المنهج العيادي إلى مسلمات أساسية وهي :

1/- التصور الدينامي للشخصية :

يرى أصحاب هذا التصور أنه لا يمكن النظر إلى الشخصية على أنها تنظيم ثابت للنواحي النفسية والجسدية التي تحدد سلوك الفرد ونموذج حياته فقط، بل هي نتاج تفاعل دينامي للإمكانات الداخلية مع العلاقات الإنسانية في إطار إجتماعي - ثقافي معين.
لذلك لا بد من النظر إلى الشخصية على أنها نتاج تفاعل دينامي ما بين القوى الذاتية من جهة، وبين القوى الذاتية والموضوعية من جهة أخرى.

2/- الشخصية كوحدة كلية :

الشخصية كل متكامل أو كل يعمل أو كل في نشاط، لهذا لا يمكن فهم الأعراض الخاصة إلا بالرجوع إلى الوحدة في صلتها بالعالم، فالنظرة العيادية لا تقتصر على جانب معين من الشخصية، إنما تأخذ بعين الإعتبار كافة الإستجابات التي تصدر عن الشخص من حيث هو كائن دينامي ومن ثم تنحصر مهمة العيادي النفسي في تحديد هذا العرض (Symptome) ضمن وحدة الشخصية ككل، بمعنى تحديد دلالاته ووظيفته.

3/- الشخصية كوحدة كلية زمنية :

يستجيب الفرد إزاء المواقف ويتضح ذلك في ضوء تاريخ حياته واتجاهاته إزاء المستقبل، ذلك يعني أن المنهج العيادي يتناول الفرد من حيث هو وحدة كلية حالية، وزمنية في موقف معين.

¹ ويتمر هو تلميذ وليام ونت (W. Wundt) بجامعة بنسلفانيا (Pennsylvanie) بأمريكا.

إن الفرد هو حالة خاصة وحامل مشاكل خاصة به، ولا بد من التعرف على ميوله، اتجاهاته وسماته المميزة (النفسية، الجسدية، الفكرية) التي تجعل منه هذا الشخص دون سواء (أي شخص معين وليس آخر) دون سواه، لهذا دراسة الفرد تحتاج إلى التعمق في حالته المعاشة من قبل، لهذا لا بد أن يكون لدى العيادي حدس وتفاعل مع الغير لكي يتعرف على الجو العاطفي والإجتماعي الذي أثر في الوضعية النفسية للفرد، فالمنهج العيادي يعتمد على حد كبير على قدرة النفساني الحدسية ومراقبته (بالإعتماد على الملاحظة) المستمرة في وضعية الفحص النفساني والموقف العيادي. أي بناء من جديد التاريخ الشخصي والتاريخ مع الغير الذي "بني" بشكل غير محكم منذ الطفولة.

المنهج العيادي يعني الدراسة العميقة للحالات الفردية بصرف النظر عن كونها سوية أو شاذة.

السؤال الذي يطرح نفسه هنا ماهو ماذا نقصد بدراسة الحالة ؟

إن دراسة الحالة تدور حول الكائن الإنساني في تفرده نقيم فيها كل المعلومات والنتائج التي نحصل عليها عن طريق الفرد، المقابلة، الملاحظات والفحص.

تهدف من وراء دراسة الحالة إلى الإحاطة الشاملة بتفاصيل الحالة من المنظور الدينامي والتراپطي العلائقي التاريخي (وبالتالي إلى وضع تشخيص).

تساهم دراسة الحالة بدور كبير في التعرف على الجهاز النفسي للفرد وكيف يوظف هذا الجهاز اتجاه المشاكل التي يواجهها وكيف يعمل الأنا على إيجاد التوازن بين هذه الأركان، ما هي الميكانيزمات التي يستعملها لهذا الغرض وكيف يستخدمها هل باستنفاد الطاقة يجهد نفسه أم لا؟.

نلاحظ أن المنهجية العيادية ليس المهم فيها تعداد الأعراض (كما يعتقد البعض)، بل الحصول على صورة دينامية لشخصية المفحوص والتعرف أساسا على كيفية توظيف الجهاز النفسي اتجاه المشاكل، لأننا في المنهجية العيادية نأخذ بعين الإعتبار فقط هذا الشخص الموجود أمامنا لنعرف كيف يتصرف في مختلف المواقف؛ فجمع المعلومات حول المفحوص يحاول الفاحص إعادة بناء (Reconstruire la trajectoire personnelle de l'individu).

دراسة الحالة :

ندون فيها كل ما يساعد على فهم تفصيلة المفحوص:

1/- معلومات عامة : (الإسم، العمر، العنوان، المستوى التعليمي).

2/- المشكلة : نوعها خوف قلق، متى بدأت؟ بدايتها.

3/- الوضع الإجتماعي

- الوضع الإجتماعي والإقتصادي.
- عدد الإخوة.
- جو المنزل : نزاع، توافق، انحرافات.
- نمط التنشئة : تدليل، إهمال، قمع، تزمت، انفتاح.
- التربية الدينية: انفتاح، تزمت.
- أحداث هامة في الأسرة : سفر، طلاق، مشكلات إقتصادية، إجتماعية.

4/- الوضع المدرسي :

- الدخول كيف كانت الإستجابة، درجة التحمل.
- نشاطه : مشاركته، منعزل، المواد المفضلة.
- المشاكل السلوكية : هادئ، مشاغب، محبوب، مكروه.

5- التاريخ الجنسي :

- الحياة الجنسية متى اكتشف الهوية الجنسية، كيف اكتسب أول معلومات جنسية، المشهد الأول، علاقات جنسية.
- الوسيلة المفضل للإشباع عادي، إستمناء.
- اضطرابات جنسية مادية، مازوشية، برود جنسي.

6- الوضع الصحي (الطبي) :

- هل هناك أمراض وراثية في العائلة نوع المرض.
- هل يوجد اضطرابات عقلية.
- هل هناك عاهات في الأسرة ما هي.

7- الوضع العاطفي والعائلي :

- نمط التفاعل والعلاقات الأساسية، نمط مجاهدة العالم
- أهمية العلاقة العاطفية مهمة، حارة، باردة.

8- الحياة اللاواعية وديناميتها :

- أنماط الدفاع الأساسية : الكبت، النكوص، الإسقاط
- حالة القلق الكامنة، مشاعر الذنب.
- حالة النزوات : دافعة، محرضة، عادية.

9- نتائج المقابلة، الإختبارات

- ملخص تبين فيه القدرات النشاط العقلي.
- الحالة الإنفعالية، الصاعات، أنواعها.
- تأثير الصراعات على السلوك الشخصي.

10- الإستنتاج العام (تشخيص الحالة)

- تشخيص دينامي وتقييم لأثر المشكلة ومحاولة إستبار مستقبل هذه المشكلة (Pronostic).
- التوجيهات ذات الطابع العلاجي والإرشادي.

ملاحظة :

عدم البحث عن هذه المعلومات بشكل إلزامي نترك الأشياء تأتي رويدا رويدا شيئا فشيئا أثناء المقابلة، أي نعمل وفقا للمادة التي يأتي بها المفحوص.

ندرج في دراسة الحالة، باعتبارها طريقة هامة، بل أساسية في المنهج العيادي، أهم خطواتها فيما يلي :

لدراسة حالة معينة نتبع ما يلي :

1- المقابلة دراسة أحلام المفحوص في المقابلة.

2- الإعتماد على الملاحظة.

3- تطبيق الإختبارات.

4- نصل إلى التوقعات ووضع تشخيص (Pronostic et Diagnostic).

1/- بالنسبة للمقابلة : هي لقاء بين الفاحص والمفحوص تبدأ عادة كما يقول (Perron) بدرشة عامة (Un bavardage familier) وهي تعطي فرصة للقيام بدراسة متكاملة للحالة عن طريق الحوار المباشر، في المقابلة الأولى على الفاحص في العيادة أن يدرسها الطالب.

في كل الحالات سواء تعلق الأمر بالفحص النفسي أو البحث فإننا في المنهج العيادي نتكلم عن دراسة الآخر، لكن لا بد أولاً ننسى شخصية الدارس التي تؤثر على سير المقابلة ومسارها.

ففي الماضي كنا لا نعطي أهمية للفاحص أثناء المقابلة لكن حالياً أصبحنا ننظر إلى كون الفاحص له دينامية خاصة، تاريخه الخاص، صراعاته إذا لم يتحكم فيها قد يتصرف سلباً في العلاقة الثنائية التي غرضها المساعدة أو حتى عند استسقاء معلومات في إطار البحث في ظل هذا المنهج.

فالفاحص ليس أب ولا أم وأخ ولا أخت المفحوص ولا حتى معلمه وأستاذه ولا المرجع الديني والسياسي له فهذه العلاقات كثيراً ما عاشها وعرفها المفحوص في حياته، بينما وضعية الفحص (في إطار المنهج العيادي) والعلاقة مع الفاحص مختلفة عن كل ذلك، فالمفحوص بحاجة إلى من يحتوي ويصغي إليه، بحيث يساعد على التدخل عن وعي للتحكم في ما يمر به، فالمفحوص هو الذي يأخذ القرارات مثلاً ولا يأخذها الفاحص في مكانه.

أريد الإشارة إلى أن المهم أثناء المقابلة هناك ظاهرة نفسية تربط طرفي المقابلة وهو ما نسميه بالتحويل (Transfert)، وبدل على أننا عندما نتكلم أو نتحدث إلى شخص فإننا لا نتوجه فقط إلى الشخصية الموجودة أمامنا (التي نتحدث معها)، ولكن أيضاً بطريقة لا شعورية إلى أشخاص وإلى صور (Des images) من تاريخه الشخصي (المتحدث)؛ ففي التحويل يتم نقل مشاريع قديمة (Sentiments Anciens) كانت في الماضي موجهة للوالدين وفي وضعية المقابلة هي مكررة (Répérés) اتجاه الشخص الذي يصغي (الفاحص)، أي أن المفحوص عندما يتكلم مع الفاحص فهو يتوجه بكلامه أيضاً دون أن يعي ويدرك ذلك إلى أشخاص من تاريخه الخاص حيث أن تأثيرهم بقي حياً فيه.

مهمة الفاحص هنا تقضي الإصغاء إلى " الرسائل " (SMS) الموجه عبره إلى الصور الوالدية وفهم أن هذه الرسائل غير موجهة إليه كشخص في الحاضر، إنما أيضاً لأشخاص في ماضي المفحوص؛ فالحاضر ينشط الماضي.

أشرت سابقاً إلى أن الفاحص إذا أراد الوصول إلى معرفة دقيقة ومعقدة للشخصية، عليه أن يدرس أحلام المفحوص أو المبحوث لأن الأحلام هي مفتاح اللاشعور كما يقول ذلك فرويد أو هي المسار الرئيسي إلى اللاشعور.

والبحث عن المعنى الحقيقي الكامن وراء الذكرى التي تبقى له عند اليقظة، حتى نعوض في فهم حياته النفسية، باعتبار أن الحلم مؤشر أساسي للتوظيف النفسي.

2/- ملاحظة : يلاحظ الفاحص والباحث في إطار المنهج العيادي كل السلوكيات اللفظية وغير اللفظية، دون أن يشعر المفحوص بأنه يدقق في ملاحظته وإلا غير سلوكه، كذلك الوسائل التي يستعملها الفاحص أو الباحث في الملاحظة (كتابة، تسجيل) قد تؤثر على سلوك المفحوص، فعليه الانتباه إلى كل ذلك.

3/- الاختبارات :

أريد أن أشير إلى أن محاولة إعطاء أرقام لأشياء نفسية عن طريق القياس، فإن ذلك يساعد الفاحص على جمع معلومات عن المفحوص في شكل رقم فالقياس يعطي للباحث فكرة عن المفحوص، ولكن لا بد من الحذر في استعمال القياس، لأن الأرقام لا تطابق تماماً الظواهر النفسية، كما أن القياس لا يعطي للفرد قيمة ككل متكامل إنما جانب فقط يسلط عليه الأضواء بالأرقام، لكن في المنهجية العيادية الفاحص أو الباحث عليه أن يستعين بالاختبارات التي تعطي معرفة معقدة وشاملة للشخصية كالاختبارات الإسقاطية لأن هذا النوع من الاختبارات يعطي وصف شامل للشخصية من الداخل فهي كما يقول أنزيو (Anzieu) بمثابة أشعة " × " .

وفي كل مرة يختار الباحث أو الفاحص ما يلائم الشخص الموجود أمامه يحترم قدراته وإمكانياته.

أسس منهجية في علم النفس الإكلينيكي :

على الباحث في إطار المنهج العيادي مراعاة الإعتبارات المنهجية التالية :

- 1- في المجال النفسي والسلوكي والإجتماعي لا توجد ظاهرة تنشط بمفردها، إنما هي تفاعل (وتداخل) بين عدة متغيرات والظواهر.
- 2- البحوث الإكلينيكية لا ترمي فقط إلى الوصول إلى قوانين ومبادئ عامة التي تحكم السلوك الإنساني إنما تهدف إلى سلوك الفرد، إلى أسباب وعوامل مؤثرة فيه، لهذا تعتمد على المقارنة كمنهج سيما دراسة الظاهرة النفسية في أوقات مختلفة (ومقارنة النتائج في ظل هذا الاختلاف).
- 3- عدم إستخدام اختبار واحد فقط بعد الإعتماد على عدة إختبارات لفهم الحالة من كافة أبعادها.
- 4- ينبغي على الباحث أن يكون حذر من معرفته الذاتية بالمفحوصين موضوع الدراسة.
- 5- على الباحث أن ينطلق دوما من أخلاقيات للبحث ترمي دوما إلى مصلحة الآخرين، وعدم توجيه الفرد (المبحوث) خارج النطاق المستهدف للبحث.

الاستنتاج:

يتضح لنا من خلال كل ما سبق أن المنهج العيادي يساهم في التعرف على الظاهرة النفسية وفهمها من منظور علائقي، ترابطي وتاريخي أي بشكل دينامي، آخذين بعين الاعتبار الشخصية ككل متكامل، ذات نظام يتحدد سلوكه بالتفاعل مع العالم الخارجي الموضوعي والواقع النفسي الداخلي.

فعلى ضوء الوقائع الداخلية يستجيب الشخص للواقع الإجتماعي بناء على توظيف الجهاز النفسي لهذا الأخير، والمنهج العيادي يعطينا صورة دقيقة عن هذه الحركة الدينامية للشخصية، وبالتالي يسمح بالتعرف على سير جهازها النفسي

المراجع :

1. (M.) ANGERS, Initiation pratique à la méthodologie des sciences humaines, Québec ; les éditions CEC inc, 1er ed. 1986.
2. (D.) ANZIEU, (C.) CHABERT, Les méthodes projectives, P.U.F., Paris, 7ème éd., 1987.
3. (O.) BOURGUIGNON, (M.) BYLLOWSKI, La recherche clinique en psychopathologie perspectives critiques, Paris, P.U.F., 1er éd., 1995.
4. (C.) CHABERT, Psychanalyse et méthodes projectives, Paris, Dunod, 1998.
5. (S.) FREUD, L'interprétation des rêves, P.U.F., Paris, 2ème éd. 1967.
6. (R.) PERRON, Névroses et transferts, A.P.A., UNISEF, Alger, 2001.
7. (M.) REUHLIN, Les méthodes en psychologie, Alger, Casbah Edition, 1998.